بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

البيئة في الكتاب والسنّة المطهرة

السيد علي بن السيد عبد الرحمن

آل هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

البيئة في الكتاب والسنّة المطهّرة

مقدمة:

أحمد الله سبحانه وتعالى، وأصلّي وأسلّم على أنبيائه ورسله، وعلى سيدنا محمد خاتم رسل الله، وعلى آله أهل الصّفاء والوفاء، وصحابته أهل التّقى والعفاف والاصطفاء، ومن اتبع هديه، وسلك طريقه ففاز بسعادة الدارَيْن... وبعد،

إنّ البشريّة اليوم تواجه مخاطر وعقبات توجب على جميع سكان المعمورة أن يوجدوا الحلول، درءًا لهذه المخاطر، واتقاءً لما لا يحسن عقباه.

والمسلمون أوّل من يخاطب ويساءل عن حلول عاجلة يقدّمونها لسكّان هذه الأرض التي استخلف الله بني آدم عليها.

لأنّ الإسلام دين عالمي، ومنهجه ربّاني، صالح للحياة، مصلح لها، ولذا توجّب على أبنائه والقائمين عليه أن يقدّموا الدّواء الشّافي الذي من شأنه أن يضمن للبشريّة كافّة السّلامة والنّجاة.

ومن هنا كانت مساهمتنا في هذه القضيّة العالميّة تشوفاً منّا في درء الأخطار التي تعترض الإنسانيّة، بل وكل الكائنات المستهدفة على هذا الكوكب، لأنّ من مقاصد الدّين الإسلامي إسعاد البشر أجمعين، وربطهم بخالق الكون (جلّ جلاله) والعمل الجاد الدؤوب لأمنهم وسلامتهم.

ومن أكبر التحديّات التي تواجه عالمنا المعاصر، والتي لفتت أنظار العلماء (في مختلف البلدان) واستنهضت هممهم لبحثها، وإيجاد سبل علاجها (مشكلة التلوّث البيئي).

وعلى الرّغم من أنّ علم البيئة (بالنّسبة لدول الشّمال) قد نشأ في أواخر القرن التّاسع عشر، في سياق التشعّب المتزايد للتخصصات العلميّة، وتطوّر الصّناعات (المفرزة للكثير من العوادم الضّارّة) إلّا أنها لم تعتن بمشكلة التلوّث، ومخاطره الضّارّة إلّا في عقدي السّتينات والسّبعينات من القرن العشرين[1].

---

[1] انظر: الفلسفة البيئيّة، مايكل زيمرمان، طبعة الكويت ، عالم المعرفة، 2006م.

وقد طرح كثير من علماء (البيئة) في الغرب الأيدلوجيّات، والحلول التي يجب اتّباعها للحدّ من آثار التلوّث البيئي.

إلاّ أننا (وقد تفاقمت هذه الظّاهرة البيئيّة) في حاجة إلى المزيد من استنباط سنّ القوانين البيئيّة، ورصيدنا نحن المسلمين وفير جداً من كتاب الله، وسنّة رسوله ρ، إذ لا بدّ من تشكيل (فقه بيئي)، وسنّ قوانين بيئيّة تستلهم منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة.

وأولى النّاس بالقيام بذلك وأجدرهم (مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي) بالمملكة الأردنيّة الهاشميّة (رعاها الله).

ومع كثرة الأبحاث والتّوصيات التي قدّمها علماء من الشّرق والغرب، إلّا أنّها تبقى في نطاق التّشريعات الوضعيّة البشريّة التي يعتريها خلل في جوانب كثيرة، ومع ذلك فهي لا تعالج مشكلة التلوّث البيئي من كل جوانبها وكافة نواحيها، كما عالجها الإسلام باعتبار أنّ ذلك ديناً سماويّاً شاملاً، ومنهجاً ربانيّاً كاملاً.

لقد عالج الإسلام مشكلة التلوّث البيئي بتنظير فريد من نوعه، فدّ في مضمونه وجوهره، لا مثيل له في الأيدلوجيّات الحديثة.

لقد سبر الإسلام أغوار المشكلة، ورسم أبعادها، ووضع الأسس والدّعائم التي تحفظ للإنسانيّة أمنها، وللبشريّة سلامتها.

وامتازت المعالجة الإسلاميّة لمشكلة التلوّث البيئي بأمرين هامين:-

الأول: المبادئ الوقائيّة التي إذا التزم بها فلن توجد المشكلة.

الثاني: التّشريعات الحازمة للمنتهكين للمبادئ الوقائيّة.

وذلك لأنّ الإسلام تتجه مبادئه إلى البيئة باتجاهين اثنين:

الاتجاه الأول: الحفاظ على البيئة وعدم إفسادها، ومنع الاعتداء عليها، يقول جل شأنه: [وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ] [الأعراف: ٥٦].

الاتجاه الثاني: إعمار الأرض، وإضافة الجديد الصّالح لها، والعمل على تجديدها، ورعايتها وتنميتها، وزيادة مواردها، يقول الله تبارك وتعالى عن أحد أدوار المسلم في الحياة، والغاية من خلق الإنسان: [وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ] [هود: ٦١].

ومعنى استعمركم، أي طلب إليكم عمارتها، فعمارة الأرض في الإسلام فريضة يجب على المسلم أن يقوم بها.

إنّ منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة ينبني على مسؤوليّة الإنسان تجاه الكون، وهو ما يتكلّم عنه عدد من فقهاء المسلمين المعاصرين عندما يتحدثون عن (أسس نظريّات إسلاميّة لسلامة البيئة) بمعناها الكلي الشّامل، كنظريّته في الخلافة والتّسخير، وأنّ من معاني الخلافة في الأرض، ومن مقتضياتها العمران والبناء، ومن شأن هذا البحث أن نعرض ما جاء به القرآن الكريم، وما جاء في الهدي النّبوي عن الرّسول المصطفى ρ.

فقد قامت المعارف والعلوم الإسلاميّة أولاً على ما جاء في هذين المصدرين الأصليين، ومن ثمّ على فهم معمّق لمقاصد الإسلام وسياسته في البناء وإعمار الكون، والتّحذير من الفساد والطّغيان، وذلك في ضوء ما هو مقرّر ومعتقد بأنه دين صالح لمعالجة ما يعتري الحضارة الحديثة، باعتباره منهجاً ربانيّاً معصوماً.

العالم يواجه أزمة بيئية حقيقية

إنّ العالم اليوم يشهد أكبر أزمة بيئيّة في تاريخه، أزمة تهدّد بقاء الإنسان سليماً على كوكب الأرض كمكان صالح للحياة، ولذلك يتوجّب على المجتمع الإنساني بأسره أن يعي بأنّ الأزمة البيئيّة هي أزمة مصير تخصّ الجنس البشري بأكمله، وأنّ مصلحة مشتركة في ضرورة البقاء تتطلّب تضافر الجهود العمليّة، والمنظورات الفكريّة في إطار بناء نظرة جديدة إلى العالم، لأنّ بقاء الجنس البشريّ ومصيره مرتبطان ببقاء

ومصير الكائنات الحيّة الأخرى، وكذلك باستمرار كوكب الأرض ومنظوماته مكاناً صالحاً للحياة، وأنها باتت مشكلة حقيقيّة تواجه العالم.

وقد تأسست في الدول الغربيّة منظمات أهليّة لمناهضة تلوّث البيئة، وطالب جمع من العلماء والمثقفين أن يقاطع الناس منتجات الشّركات والمصانع التي لها دور في التلوّث البيئي.

وقد اهتمّ عدد كبير من المفكّرين بمشاكل التلوّث البيئي في الدّول المتقدّمة بحيث إنهم جعلوا مشكلة التلوّث البيئي من أهمّ التحديّات التي تواجه الحياة والأحياء.

وعلى الرّغم ممّا تقدّموا به، إلّا أنّ الحكومات لم تأخذ بجلّ ما قدّم من مقترحات، ولو تكاتفت الدّول بجدّ وإصرار على تنفيذ تلك المقترحات، لكانت كفيلة بمنع تفاقم التلوّث البيئي الخطير.

لقد صحّ عند الجميع أنّ الملوّثات البيئيّة ناتجة عن كثير من الصّناعات، وأشدّها فتكاً ذلك التلوّث النّاتج عن التّجارب الذريّة والنّوويّة، فهو تلوّث يهدّد البشريّة في صميم بقائها.

مشكلة تلوّث البيئة وأبعادها

يتوافق عدد كبير من ذوي الاختصاص في السّياسات البيئيّة على أنه لا حلّ لمشكلة تلوّث البيئة إلّا بتوافق سياسي يحدّد الأولويّات، ويزيل العقبات، ويمحو الشّكّ المتوطّن في الدّول الكبرى.

لأنّ معظم المشكلات البيئيّة لها حلول من النّاحية النّظريّة، إلّا أنّ هذه الحلول العلميّة تهمّشها عملياً المعايير والاعتبارات الاقتصاديّة الخاضعة للقرارات السياسيّة، التي تعوق النّشاط الجماعي البنّاء، الهادف إلى حماية البيئة، ذلك لأنّ أضرار التّنافس اللامحدود واللاأخلاقي - بين الدّول الصناعيّة الكبرى- تنعكس على البيئة من حيث إنّ هذه السّياسات لا تُؤْمن إلّا بالمصالح الذّاتيّة، والمكاسب الآنيّة، من غير أي اعتبارات للجانب الأخلاقي في المسؤوليّة تجاه الآخر.

إنّ نقص الموارد من جهة، والسّلوك الأناني، أو المعني بالمصلحة الذّاتيّة من جهة أخرى، دفعا بهم إلى الاعتقاد بأنّ حلّ المشكلة بالقوانين المنظّمة قد يؤدّي إلى ما يفسّر بأنه ضدّ الرّغبات الجامحة في تنمية الثّروات من ناتج الصّناعات المختلفة.

بل إنّ هاجس (الأمن القومي) دفع حكومات الدّول الكبرى إلى المضي قدماً فيما تراه، غير عابئة بما ينتج من تلوّث خطير للبيئة، بل ساهمت حكومات وشركات كبرى بقدر كبير في التلوّث بمشاريعها الاقتصاديّة نتيجة المنافسة الشّرسة مع دول الخصوم الأخرى.

والأشدّ فداحة أنّ مثل هذه الدّول المتقدّمة تنضم إليها سنويّاً دول أخرى تضخّم اقتصادها، وتشعَّبَت صناعتها، ولم تتخذ الدّول القديمة أي طريقة تؤدّي إلى استعمال التّقنيات البيئيّة المطلوبة.

وجوب حلّ المشكلة عالميّاً

تلوّث البيئة مشكلة عالميّة، ويكتوي بنارها العالم كله، ولذا يتوجّب حلّها على النّطاق العالمي، وليس بمجرد حلّ إقليمي أو تشريعات محدودة.

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكيّة قد طالتها الآثار الضّارة النّاجمة عن الوثبة الصّناعيّة الصينيّة، علاوة على تلوّثها النّاجم عن صناعتها ومشاريعها هي، فإنّ أوروبا كذلك قد طالتها التّغيّرات البيئيّة بسبب الصّناعة والمشاريع المحليّة والعالميّة، وقد أفاد علماء بريطانيون بأنّ المواد الكيميائيّة التي يحملها الهواء من القارة الأمريكيّة يستقرّ بها المقام في بريطانيا وأوروبا الغربيّة.

ومن المعروف أنّ أمريكا أكبر بلد مستخدم للنّفط في العالم، والنّفط ومشتقّاته من أشدّ العناصر فتكاً وتلويثاً للبيئة، وحتى يومنا هذا لم تستطع الدّول الصناعيّة الكبرى أن تفعل شيئاً - ذا بال- تجاه الانتهاكات المستمرّة للبيئة.

ومن هنا فإنّ الإنسانيّة تتطلع إلى منهج شامل يأخذ بالعالم إلى أمنه، ويكون على قدر من الأخلاق بما يمكّنه من الارتقاء إلى مستوى المسؤوليّة تجاه الإنسانيّة، مقدّماً هذا على كافّة الأهواء والمصالح.

وقد استطاع الإسلام أن يقدّم فلسفة بيئيّة، ويرسم فقهاً بيئيّاً عامّاً يضمن سلامة الكوكب الأرضي من الدّمار والخراب.

وإذا كان الإسلام قد نظر وقنن، فما مدى قابليّة هذه القوانين للتّطبيق، وهذا هو ما سنعرضه بعون الله وتوفيقه...

منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة

المنهج الإسلامي تجاه البيئة والحفاظ عليها واضح بيّن في أطر عريضة، وقوانين مرسومة تحمي البيئة من التلوّث.

ولوضوح ما جاء به الكتاب والسّنّة المطهّرة في هذا الصدد، كان من المفترض أن تسارع الدّول الإسلاميّة، وفي مقدّمتها الدّول العربيّة إلى تطبيق هذه القوانين والقواعد، والأخذ بها لتكون مثالاً يحتذي به الآخرون، إلّا أنّ العكس مع الأسف هو الذي لا زال يحدث.

ولقد أثنى الكثيرون من علماء البيئة من غير المسلمين، على ما في الخطاب القرآني الذي يحتفي بالطّبيعة، ويرعى عناصرها، ويوجب الحفاظ على توازنها.

فالقرآن الكريم يعتني أشد العناية بالأرض وما فيها من كائنات حيّة، ويمتدّ اعتراف العلماء بعظيم ما في الوصايا النّبويّة، والأحاديث كثيرة في ميدان البيئة، والتي تدعو إلى الرّفق بالحيوان، والتّعامل الرّشيد مع موارد الأرض ماءً وكلأً، والتّحذير الشّديد، بل التّحريم لكل ما يوصف بأنه هدر أو تبذير لأيٍّ من موارد الأرض.

الأطر العريضة لمنهج الإسلام في الحفاظ على البيئة

منهج الإسلام في التّوازن البيئي:

لقد أوضح القرآن في آياته المحكمة، أنّ الله خلق الكون متوازناً، وأنّ كل شيء فيه بمقدار، وأنه لا ينبغي أبداً المساس بالموازين الكونيّة كي لا تنقلب الطّبيعة كائناً متوحّشاً غير مألوف.

فإذا كانت هذه نظرة الإسلام للطبيعة والكون، وإذا كان هذا ما أمر به الإسلام جميع خلق الله، فإنّ انتهاك الطّبيعة، والانقضاض على مقدّرات البيئة ممّا يؤذن بانهيار ما تقوم به الحضارة الغربيّة الحديثة، الأمر الذي يترتّب عليه انعدام النّاموس الكوني، إنّ الهيمنة والإخضاع والانتصار على الطّبيعة، كلّ هذه الألفاظ والمسميّات استخدمت كما لو أننا في حملة عسكريّة فاصلة.

إنّ محاولة الفوز بنصر تام على الطّبيعة، هي محاولة الأجدر بأن توصف بالفسق والمروق، لأنّ الاعتداء على الطّبيعة والكون هو انتهاك للاعتقاد السّليم، وأنّ بعض الأفعال النّاشئة عن الجشع الاقتصادي وما يسمى تنمية مستديمة مدمّرة للكون.

وإذا كانت البيئة بطبيعتها شيئاً قد قدّره الخالق عزّ وجلّ، فلا ينبغي للمرء العاقل أن يتحدّث عن إخضاعها أو الانتصار عليها.

إنّ صنعة الخالق عزّ وجلّ خيّرة طيّبة لا خصومة تدعو لإخضاعها، لأنّ الإخضاع تدعو بالضّرورة له الخصومة والتعدّي.

إنّ الفكر الصناعي ومذاهبه تخوض بثبات حرباً على الطّبيعة، حرباً تشوّه ما في الطّبيعة من خير وجمال، وتنتهك ما فيها من عطاء لا حدود له.

إنّ المشهد الحديث لما يمارس في الغابات من الإزالة والمحو، وتآكل الأراضي الزراعيّة، والإسراف في تبديد الثّروة النّفطيّة، والإغراق في الصّناعة بالمعادن القاسية، والجور على طبقات الأرض بحفر غير مبرّر للمناجم، والتصرّف في مواطن

الأحياء البحريّة وردم السّواحل، كل ذلك شاهد على عصر يفعل ما يفعل بلا وقار لنفسه ولأخلاقه.

ويثبت العلامة الدكتور أحمد مدحت إسلام، في كتابه (التلوّث مشكلة العصر) بأنّ أهم ما يميّز البيئة الطّبيعيّة هو ذلك التّوازن الدّقيق القائم بين عناصرها المختلفة، فلو أنّ ظروفاً ما أدّت إلى إحداث تغيير من نوع ما في إحدى هذه البيئات، فإنه بعد فترة قليلة قد يؤدّي بالطّبيعة إلى تلافي آثار هذا التّغيير، ومن أمثلة ذلك: أنّ النّار إذا دمّرت جزءاً من إحدى الغابات، فإنه بعد عدّة أعوام قليلة تعود هذه الأرض التي احترقت أشجارها إلى طبيعتها، فتنمو بها الحشائش والأعشاب، ثمّ سرعان ما تكتسي تلك الأرض بالأشجار الباسقة مرّة أخرى.

إنّ التّوازن القائم بين مختلف عناصر البيئة توازن دقيق، ويمكن ملاحظته في كثير من الأشياء التي تقع حولنا، ويمكن أن نرى ذلك التّوازن في دورة الكربون، فيقوم النّبات بامتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون من الهواء، ويستخدمه في صنع ما يحتاج من غذاء، ويطلق في هذه العمليّة غاز الأوكسجين كناتج ثانوي، وتقوم عناصر الاستهلاك باستخدام غاز الأوكسجين في عملياتها الحيويّة، وفي الحصول على الطّاقة اللازمة، وتطلق بدورها غاز ثاني أكسيد الكربون إلى الهواء لتستخدمه بعد ذلك عناصر الإنتاج مرة أخرى.

وهكذا تتكوّن لدينا المعرفة الحقّة بأنّ الله تبارك وتعالى قد خلق الكون في نظام محكم دقيق، إلّا أنه يفقد توازنه بالمؤثّرات الخارجيّة، ومع تراكمها وكثرتها وشمولها تحدث خللاً خطيراً في النّظام البيئي المتوازن.

توجيهات الإسلام في التّعامل مع الجماد والحيوان والنّبات:

لقد شدّد الإسلام على أهميّة الحفاظ على التّوازن البيئي وأمر بالمحافظة على جميع أنواع الكائنات من جماد وحيوان ونبات، وتعاليم الكتاب والسّنّة المطهّرة تُفصحُ بكل بيان

ووضوح على أهميّة الحفاظ على التّوازن البيئي، وذلك بحفظ المقادير من حيث الكميّة والكيفيّة في الكون.

يقـول الله تبـارك وتعالى: [وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ] [الحجر:١٩].

ويقول جلّ شأنه: [وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ] [الحجر:٢١].

ويقول عزّ من قائل: [ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ] [الرعد:٨].

ويقول جلّ جلاله: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] [القمر:٤٩].

ويقول عزّ اسمه: [أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ] [الرعد:١٧].

وفيما تكفّلت القدرة الإلهيّة بما يقوم على حفظ سلالات الكائنات يقول جلّ شأنه: [وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ] [الأنعام: ٣٨].

وتبرز في هذه الآية حقائق المثليّة في سائر خلق الله، وإن احترام وجود هذه الكائنات، ورعاية حقّها في الحياة هو جزء من إصلاح الأرض وعمارة هذا الكوكب.

ولذلك دعا رسول الله ρ فقال: «إيّاكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإنّ الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلّا بشقّ الأنفس».

وروى البخاري بسنده أنّ رسول الله ρ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها وشرب ثمّ خرج، فإذا بكلب يلهث يأكل الثّرى من العطش، فقال الرّجل: قد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر

فملأ خفّه ثمّ أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكره الله فغفر له». قالوا يا رسول الله وإنّ لنا في البهائم لأجر؟.. فقال صلوات الله وسلامه عليه: «في كلّ ذات كبد رطب أجر».

وفي صحيح مسلم، أنّ رسول الله ρ قال: «عُذِّبَتْ امرأةٌ في هرةٍ حبستها فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض». وفي صحيح مسلم أنّ امرأة كانت على ناقة فلعنتها، فسمع رسول الله ρ ذلك، فأمر بإعراء النّاقة ممّا عليها وإرسالها، عقوبة لصاحبتها، ذلك لأنّها تعرّضت للسّبّ غير المبرّر والمنهي عنه شرعاً، إذ يعتبر الشّاتم متخليّاً عن مكارم الأخلاق.

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنّ رجلاً أضجع شاتاً يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي ρ «أتريد أن تميتها موتتان؟. هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها». رواه الحاكم في المستدرك، وقال هذا حديث صحيح على شرط البخاري.

تقنين الرّفق بالحيوان عند فقهاء الشّريعة الإسلاميّة:

قال جمع من فقهاء الأمّة بتحريم خصاء البهائم لما يلحقها بهذه العملية من التّعذيب، كما يحرم متابعة السّفر عليها دون أن تأخــذ نصيبها من الاستراحة والأمن، كما يحرم أن يتخذ الحيوان هدفاً للرّمي ولو كان تعليمـاً على الصّيد والقنص، ففي صحيح مسلم "أنّ ابن عمر رضي الله عنهما مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً يرمونه، فلما رأوه تفرّقوا، فسأل من فعل هذا؟. إنّ رسول الله ρ لعن من اتخذ شيئاً فيه روح غرضاً".

وقرّر فقهاء الإسلام أنه لا يجوز الحمل على ما لم يُخلق للحمل، كالبقرة والغزالة ونحوهما، إنما ينتفع بما تعطيه.

وقد أمر رسول الله ρ بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة أن تختنق الدّابة عند شدّة الرّكض.

قال الإمام الأعظم أبو حنيفة النّعمان: لو ضرب الرّاعي شاة ففقأ عينها، او كسر رجلها ضمن، وكذلك لو ساق الأجير المشترك أغناماً وصعد بها جبلاً مرتفعاً فتردّت

من موضع يمكن الاحتراز منه فإنّه يضمن، والنّصوص الفقهيّة التي قرّرها فقهاء الإسلام في هذا النّطاق أكثر من أن تحصى[1].

نشاط جمعيات الرّفق بالحيوان في الغرب:

في عام 1824م أسّست في إنجلترا أوّل جمعيّة للرّفق بالحيوان، وسرعان ما انتشرت جمعيّات في عواصم الدّول الغربيّة، وكان ذلك مدعاة للفخر لديهم.

وقد احتجّت هذه الجمعيّات على الولايات المتحدة الأمريكيّة حين فجّرت قنبلتها الذريّة في المحيط الهادي، فقتلت آلاف الحيوانات المائيّة، وأدّت إلى تلوّث المحيط وما أحاط به من اليابسة المجاورة، وعندها قدّمت جمعيّات الرّفق بالحيوان احتجاجات واضحة معلنة استنكارها الشّديد، إلّا أنه كان على أعضاء هذه الجمعيّات أن يمدّوا استنكارهم إلى ما لحق بالإنسان من أضرار ودمار، لأنّ الرّحمة شعور متكامل لا يتجزّأ، ولا يفرّق بين حيوان وحيوان.

بنظرنا كان على أعضاء هذه الجمعيّات وكل المجتمع الدّولي أن يعلنوا احتجاجهم حين أسقطت الطّائرة الأمريكيّة قنبلتها الذّريّة على هيروشيما فقتلت عشرات الآلاف من بني الإنسان في طرفة عين، وتركت آلاف المشوّهين ثمّ المصابين الذين يستعصى على الطّب علاجهم، وتلوّثت البيئة بما لا تعهده من تلوّث من ذي قبل.

إنّ الشّعور بالرّحمة بالكائنات شعور نبيل يجب أن يسود النّاس جميعاً، ولن يصدق هذا الشّعور حتى يشمل كل كائن حساس، ليجتث بواعث الألم قبل أن تهيأ لها الأسباب.

ثمّ إنّ الرّفق بالحيوان قضيّة لم تتحقّق إلى الآن في المجتمعات الغربيّة بشكل مرضي، ولا زال البيئيون يطالبون في المجتمعات الغربيّة بحقوق الحيوان واحترام قوانين البيئة[2].

---

[1] القيم الإسلاميّة في الإسلام، محمد رجب البيومي، ص62.

[2] الفلسفة البيئيّة، مايكل زيمرمان.

إنّ الرّفق بالحيوان في الشّريعة الإسلاميّة ليس مجرد شيء قابل للتنحّي عن متطلّباته، مقابل مصالح ذاتيّة، أو مكاسب آنية، بل إنه تعبد لله عزّ وجلّ، وجزء لا يتجزأ من المنظومة الأخلاقيّة، والسّلوك المؤمن السّوي.

وقد جاء في كتاب (الأم) للإمام محمّد بن إدريس الشّافعي (رحمه الله) أنّ عمر بن الخطاب τ قدم مكة، فدخل دار النّدوة يوم الجمعة، وألقى رداءه على جدار فيها، فوقع عليه طير من الحمام، فأطاره الفاروق عن ثوبه، ووقع على جدار آخر كانت عليه حيةٌ فقتلته، فتأثّر عمر لما رأى وقال لأصحابه: ما أظن إلّا أنني كنت السّبب في مصرع هذا الطائر؟. فماذا أصنع؟. فقيل له: تصدّق بعنزة يا أمير المؤمنين، فعجّل بالتّصدق، وهو يرى نفسه مذنباً بذنب لم يرتكبه.

وقد توسّع علماء الإسلام من السّلف والخلف، توسعوا في التحدّث عن الرّفق بالحيوان في الإسلام، وأثبتوا في مصنّفاتهم البراهين المستندة لما جاء في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة، ودوّنوا أمثلة تاريخيّة مشفوعة بالشّعر والنّثر الوصفي والقصصي الصّادق.

العناية بالزّراعة والمزروعات في الإسلام:

اعتنى الإسلام بالحفاظ على النّبات، وحرّم قطع الأشجار، وجاء الذّكر الحكيم موجّهاً الأمّة بأنّ النّبات له من الحرمة ما للإنسان، ولا يجوز انتهاكها، أو التّعدّي عليها، لأنها مثل الإنسان من حيث كونها مخلوقة من خلق الله، مشتركة معنا في الوجود على الأرض، ولذلك فإنّ احترام وجودها، وعدم الاعتداء عليها واجب ديني، ورعاية حقّها في الحياة هو جزء من عمارة الأرض وإصلاحها.

إنّ الإسلام يأخذ موقفاً حازماً تجاه قطع الأشجار، واجتثاث النّبات، يقول الرسول ρ «من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النّار». رواه أبو داود.

إنّ آثار وتبعات قطع الأشجار ومضار هذا العمل تسوغ هذا التّوعد من رسول الرّحمة، إنّ كافة المخاطر البيئيّة التي تواجه العالم اليوم ناتجة عن قطع الأشجار، والتّعدّي على الغابات والمساحات الخضراء.

بل إنّ مشكلة (الانحباس الحراري) تعود إلى تجاوز الإنسان في كل مكان مواثيق العدالة في حقّ اللون الأخضر، مصدر حياته.

ومن المعروف علمياً أنّ النّبات يقوم بامتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون من الهواء، ويطلق غاز الأوكسجين، فإذا ما قلّت المساحات النّباتيّة الخضراء، أو انعدمت، عندها يختلّ التّوازن البيئي.

إنّ الأضرار النّاجمة عن قطع الأشجار، وإزالة الغابات تهدّد بقاء البشريّة، فلا يستغرب إذاً من شدّة العقوبة التي سنّها الإسلام للمعتدين.

يقول الرسول ρ مرغّباً في الزّراعة، ومشيراً إلى عظم الأجر والثّواب لمن يعتني بالزّرع والحرث: «من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرتها صدقة عند الله عزّ وجلّ». رواه الإمام أحمد والبيهقي.

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما قول الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه: «ما من مسلم يغرس غرساً إلّا كان ما أُكل منه صدقة، وما سُرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة».

وقال صلوات الله وسلامه عليه في معرض توجيهه للحثّ على الغرس والزّرع لما له من فوائد على الحياة والأحياء في الدّنيا، ولما له من عظيم الثّواب والأجر في الآخرة: «لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها». رواه الإمام أحمد.

وفي هذا الحديث النّبويّ الشّريف تتجلّى حكمة الإسلام في زيادة الرّقعة الزّراعيّة، وتوسيع مساحات الأرض الخضراء، ولم تعهد البشريّة قبل الإسلام ديناً يأمر أتباعه بغرس شجرة، والحرص على ذلك حتى لو قامت القيامة، فأين هذا التوجّه الكريم، والعناية بالبيئة، والحرص على احترامها من ما نراه اليوم من انتهاك حرمات الأرض

من أجل منافسة اقتصاديّة شرسة لا ترتكز على أخلاق أو مبادئ، إنما على مصالح زائلة، وأهواءٍ ضالة.

خلاصة البحث

قصد الإسلام في معاملة الإنسان لأيّ عنصر من عناصر الكون، قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)، فقال جل شأنه: [وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ] [الأعراف:٥٦].

هكذا أراد الله للإنسان أيّاً كان نوعه أو جنسه أو ديانته، أو لغته، أن يعيش عيشة هادئة مطمئنة يحترم ويُحترم، ويحافظ على البيئة التي هي في الأصل مُسخرة له، فلو انتهكها أصبح كمن ينتهك جزءاً من كينونته.

ولعلّ فيما مرّ يفصح عمّا أردنا في هذا البحث أن يكون قد أشار إلى الأسس والمبادئ الكليّة التي جاءت بها الشّريعة التي تأخذ البشريّة إلى برّ الأمن والأمان.

والله يقول الحقّ وهو الهادي إلى سواء السّبيل.

السيد علي بن السيد عبد الرحمن الهاشم
مستشار الشؤون القضائية والدينية
قصر الرئاسة- أبو ظبي
عضو مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي
عمان - الأردن

8 ذي الحجة 1430هـ

25 تشرين الثاني/نوفمبر 2009م

المراجع

1. القرآن الكريم ، طبعة الأزهر الشريف.
2. صحيح مسلم، طبعة عيسى البابي الحلبي.
3. صحيح البخاري، طبعة الهند.
4. أفلا تبصرون، د. أحمد محمد عوف.
5. تلوّث البيئة، د. أحمد حسن الشحات.
6. الخطر النووي، د. محمد عرفة.
7. الفلسفة البيئية، مايكل زيمرمان.
8. الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة، عبد المقصود السعيد.
9. من القيم الإنسانية في الإسلام، د. محمد رجب بيومي.
10. التلوّث البيئي والهندسة الوراثية، د. علي محمد عبد الله.
11. نظرية الحرب في الإسلام، العلامة الإمام الشيخ محمد أبو زهرة.
12. موسوعة الاكتشافات العلمية، د. ديفيد إلياردو.
13. أسرار وخفايا من مملكة اليخضور، د. زين العابدين متولي.